المسألة الأرمنية والجينوسايد

الباحث عبدالله شكاكي

لمحة تاريخية:

الشعب الأرمني أحد الشعوب القديمة في منطقة الشرق الأوسط، الذين استقروا إلى الشمال من منابع دجلة والفرات وجنوب القوقاز بجوار الشعب الكردي أو متداخلا بينهم، ينحدرون من أصول آرية ومن الفرع الهندو- جرماني، وحسب الروايات التاريخية أنّهم استقروا بداية في البلقان وتحديداً في منطقة "تساليا" شمال اليونان، ثم دخلوا إلى آسيا الصغرى عبر مضيق البوسفور واختلطوا مع الحثيين في القرن الثاني عشر قبل الميلاد، ثم امتزجوا مع الشعب الخلدي (أورارتو) في القرن الثامن قبل الميلاد، وربما تشكلوا من مزيج خلدي- حثي- ميتاني، وأخيراً سكنوا في أعالي الفرات، ويُعتقد أنّ الأمة الأرمنية نتجت من أولى تحالفاتها القبليّة التي دعيت "ساسبير" في القرن السابع قبل الميلاد، وعاصرت الإمبراطورية الميدية وخضعت لها وعاشت جنباً إلى جنب مع المجتمع الكردي.

تنتمي لغتهم إلى المجموعة الهندو- جرمانية وقريبة من اللغة الكردية، وقد وضع أبجديتها الراهب "ميسروب" سنة 406 م، كما أنّهم يُشبهون من الكرد في العادات والتقاليد والأزياء، أما الشكل البشري فإنّهم يتميزون بقامة متوسطة قريبة من القِصَر والشعر أسود فاحم وسعة في الفكّ وانبساط في الخدين وأنف أقنى وصدر عريض وبشرتهم مائلة إلى السمرة شبيهة بالبشرة اليونانية، وهم أول شعب اعتنق المسيحية وذلك في سنة 301 م، وتعرضوا مثل الكرد لغزوات وهجمات خارجية متعدّدة لأنّهم كانوا مجاورين للمجتمع الكردي وللمحتل نفسه، ولذلك فإنّ تاريخهم يتشابه مع تاريخ الكرد، فقد تعرّضوا للاحتلال الفارسي واليوناني على يد الإسكندر ثم السلوقي والپارثي والروماني، وفي سنة 387 م قسّمت بلادهم وكردستان بين البيزنطيين والساسانيين ثم خضعت للعرب المسلمين، وأخيراً تعرّضوا لغزوات المغول والسلاجقة، وفي القرن السادس عشر خضعت (أيضاً مثل الكرد) للصفويين والعثمانيين، وبسبب هزيمة إيران في حربها مع روسيا في أعوام (1826-1828) أُلحق جزءٌ من أرمينيا بروسيا، و"في تلك السنة نفسها انضم جزء من الشعب الكردي إلى روسيا، ومعظم كرد الاتحاد السوفيتي (السابق) هم أحفاد هؤلاء"[1].

شكّل الأرمن مملكة قوية في القرن الأول قبل الميلاد على يد "ديكران" دام حكمها أربعين سنة (55-95) ق.م وشملت حتى سوريا، برز منهم أُسَر حاكمة مثل أرشاك و بقرادوني إضافة إلى ديكران، عُرف عنهم روح المغامرة والتفاخر، وهذا ما عرّضهم للدمار والنفي والتهجير، كما عُرف عنهم "ميلهم الكارثيّ إلى الانقسام لأسباب عسكرية أو دينية أو سياسية بسبب نزاعاتهم الطبقية بين مجموعاتهم المختلفة"[2]، وإنّ مواقفهم الرجولية المشهودة لها أوقعتهم في معظم الأحيان في مطبات صعبة.

---

[1] مظهر كمال، كردستان في سنوات الحرب العالمية الأولى ص 236.

[2] كارزو جان ماري، أرمينيا 1915 الجريمة النموذج لإبادة الجنس البشري، ترجمه عن اليونانية جورج آرويان، مطبعة القمة الحسكة- سوريا 2003 ص 1.

كانت النكسة الأولى التي تعرّض لها الأرمن في القرن الحادي عشر مع قدوم الزحف السلجوقي سنة 1064، حيث تعرّض الأرمن للتنكيل والتهجير نحو كيليكيا ودمرت مدينة آني[3] ذات الألف كنيسة، بسبب تعاون أهلها مع الغزاة الأوربيين وتمسّكهم الشديد بالمسيحية، ورفض الطبقة الحاكمة التعايش مع الشعوب المسلمة، وقد كان استقرارهم وتأسيسهم كياناً خاصاً بهم دعي بـ "أرمينيا الصغرى" بمثابة بدل ضائع لوطنهم، حيث استقروا في مدن: أضنة، سيس، طرسوس وزيتون، وقد أراد الأرمن الحفاظ على مملكتهم الجديدة من ضغط السلاجقة، ومن أجلها عقدوا اتفاقاً مع "منكو خان" حفيد جنكيز خان قائد المغول الذين كسحوا بلدان الشرق، إلا أنّ اتفاقهم أثار نقمة الظاهر بيبرس ملك المماليك، حيث شنّ الأخير حملة عسكرية على كيليكيا استمرت حتى عهد خلفه الملك الأشرف، حيث قُضيَ على أرمينيا الصغرى سنة 1375، وفي تلك المرحلة بدأت الروابط الدينية مع الغرب تزداد وبشكل رسمي، حيث "ضغط الفاتيكان لإخضاع الكنيسة الأرمنية لسلطتها"[4]، واشتهرت مدينة "زيتون" بانتفاضتها سنة 1862 التي قاومت قوات باشا المنطقة وتمكنت من الحفاظ على وضعها بالتدخل الفرنسي.

كان الفارق الوحيد بين الأرمن والكرد هو الانتماء الديني فقط، إلا أنه لم يكن عامل تفريق لفترة طويلة، لأنّ الكرد كانوا وسطيين على الدوام وبعيدين عن التعصّب الديني، في حين انجرَّ الأرمن نحو العصبية الدينية بتأثير تطور علاقاته مع الدول الأوربية من جهة، وتغلغل الإرساليات التبشيرية المختلفة في أوساط المجتمع الأرمني إضافة إلى عوامل مساعدة أخرى من جهة ثانية، وربما كان لتلك العوامل تأثير على العلاقات الكردية - الأرمنية، أو بتعبير آخر ساعدت تلك العوامل على التقارب بين الكرد ومحيطه الإسلامي مع السلطنة العثمانية خاصة، أو أنّ العثمانيين حاولوا جذب الكرد إلى جانبهم لمواجهة التقارب الأرمني- الأوربي (المسيحيّ).

أدّى تطوّر العلاقات الأرمنية - الأوربية في القرون الوسطى إلى تمتع الأرمن بالاستقلال أكثر من مرة، وبالتالي فتح الباب أمامهم لتطوّر اللغة والآداب والعلوم والتجارة، حيث "وقع جزء من وطنهم تحت سيطرة دولة متقدمة،* بدلاً من أن يكون جزءاً من بلد آسيوي متخلّف"[5]، وهذا ما أدى إلى تطوّر الحالة الاقتصادية - الاجتماعية وتطوّر وسائل الإنتاج، وتمكّن الأرمن من تجاوز المرحلة الإقطاعية والدخول في العلاقات الرأسمالية، ومن ثم الاندماج بالسوق الرأسمالية، مما أدّى إلى تقدّم المجتمع الأرمني حضارياً والتفوّق على الكرد، في حين بقي المجتمع الكردي يرزح تحت وطأة العلاقات الإقطاعية المتخلفة لزمن طويل، بسبب السيطرة العثمانية المستمرة.

تسبّب التحوّل الذي طرأ على المجتمع الأرمني المتداخل مع المجتمع الكردي إلى حدوث تغييرات كبرى واختلال في التوازن المجتمعي بين الكرد والأرمن، إضافة إلى العقبات التي وضعتها الدولة العثمانية الإقطاعية في سياستها الزراعية تجاه الأرمن، كالضرائب الباهظة والمتعدّدة والاستيلاء على الأراضي الزراعية رغم قلتها، حيث معظم تضاريس أرمينيا جبلية، لذا وجّه الأرمن جلَّ اهتمامهم نحو الحرف اليدوية والصناعة والتجارة، والانفتاح على الدول الأوربية في زمن مبكر، وبالتالي أصبحت أكثر من 75 % من المراكز الحرفية والصناعية إضافة إلى التجارة الداخلية والخارجية في تركيا عامة وفي الولايات

[3] كانت مدينة آني تحت حكم الدولة الشدادية الكردية في سنوات (951-1101) وبعد احتلالها من قبل آلب أرسلان السلجوقي تم إستردادها سنة 1072 ثم انقسمت الأسرة الشدادية إلى شعبتين اتخذت إحداها آني عاصمة لها.(للاستزادة يرجى مراجعة كتابنا وطن الشمس ج 2 بحث الدولة الشدادية).

[4] كارزو جان ماري مرجع سابق ص 15.

[5] مظهر كمال أحمد مرجع سابق ص 237.

*مثل روسيا.

ذات الغالبية الكردية خاصة بيد الأرمن، فقد كانت صناعة الأدوات والمستلزمات الزراعية والمنزلية محصورة بأيديهم، ومن الطبيعي أن يلجأ الفلاحون والإقطاعيون الكرد إلى جيرانهم الأرمن لتأمين مستلزمات العمل، "وعندما اندمجت كردستان بالسوق الرأسمالية وصارت النقود الواسطة الرئيسية لتنظيم العلاقات، أصبح الأرمن الأثرياء أكبر مصدر للاستدانة والاستلاف"[6]، ولأنّ الحرفيين الكرد القلائل بسبب خبرتهم القليلة لم يتمكنوا من منافسة الخبرة الأرمنية الأطول عهداً.

ومن هنا بدأ الصراع يأخذ طابعاً تصاعدياً، بين الدائن والمدين من جهة، وبين حرفيي الطرفين من جهة ثانية، إضافة إلى أنّ الحركة القومية الأرمنية في نهاية القرن التاسع عشر سبّبت بعض المخاوف للكرد جراء مخططات "حزب الطاشناق" المتطرّف، بادعاءاته العلنية أنّ غالبية جغرافية كردستان بلاد أرمينية.

لكن التناقضات الحاصلة بين الشعبين لم تصل إلى مستوى التصادم، وكان تأثيرها ضئيلاً على القاعدة الشعبية من الطرفين، لأنّ الشعبين كانا يرزحان تحت وطأة عدو مشترك، وقد حرَّم عليهما سبل الحياة كافة، بما فيها حرمانهما من وطنهما بإجراءات التهجير القسري المستمرّ، وإثقال الباقين بالضرائب الباهظة، ولذلك شكل ظلم الدولتين العثمانية والصفوية المطبّق على الكرد والأرمن عاملاً إيجابياً لتقريبهما من بعضهما، ففي رسالة سرّية مؤرخة في 13 من تشرين الأول 1912 كتبها كاهن أرمني من "موش" إلى الحبر الأعظم للأرمن الكاثوليك يقول فيها: "...، إنّهم ينهبون الفلاحين الأرمن والكرد معاً بحجة ضريبة العُشر"[7]، مما يعني أنّ الظلم كان مطبقاً على الشعبين دون تمييز، وإذا كانت الظروف والمصلحة العثمانية قضت بالسماح لبعض الإقطاعيين الكرد المقرّبين إليها بالتطاول على ممتلكات الشعب، فإنّ ظلمهم طال الكرد والأرمن معاً، حيث سمح السلطان عبد الحميد بإحكام قبضة الإقطاعيين الكرد على القرى الأرمنية، وإرهاقها بالضرائب الباهظة تحت مسمّى "ضريبة الكفر" لخزينة الدولة، وضرائب إضافية للإقطاعي الكردي.

من المعلوم تاريخياً أنّ الأتراك منذ أن غادروا أراضيهم التاريخية في تركستان (الصين) وتوجّههم صوب آسيا الوسطى بسبب الجوع أو غيره، اعتادوا على استخدام القوة والعنف ضدّ الشعوب التي صادفوها، واستمروا بذلك إلى حين اجتياحهم للأقاليم الشرقية من البلاد الإسلامية باسم السلاجقة في القرن الحادي عشر الميلادي، وعندما وصلوا إلى كردستان خاضوا معركة ملازگرت سنة 1071 بالتعاون مع الكرد ضدّ البيزنطيين وانتصروا عليهم، واستمروا حتى وصلوا إلى الأناضول الغربي حيث نكّلوا بالشعوب التي صادفوها، واستمرّ أحفادهم من العثمانيين على النهج نفسه من القرن الرابع عشر وحتى القرن العشرين، ويبدو أنّ استخدام العنف كان شبه غريزة لشعب عاش على الغزو والحروب.

كان السلطان عبد الحميد يغضُّ الطرف عن ظلم الإقطاعيين الكرد، بل كان يشجّعهم ويحرّضهم على الاستيلاء على أراضي الأرمن، فقد كتب الأكاديمي السوفيتي □. گردليفسكي بهذا الصدد: "كان الحكام يعلمون الإقطاعيين الكرد أن ينظروا إلى الأرمني بمثابة بقرة حلوب، فقد كانوا يتبعون معهم سياسة "فرّق تَسُدْ"[8].

[6] مرجع سابق ص 238.
[7] مرجع سابق ص 240.
[8] مرجع سابق ص 243.

ولَّدَ الظلم والاستعباد الذي لقيه الأرمن على يد الإقطاعيين الكرد - مدفوعاً من السلطان - كرهاً شديداً لدى الأرمنيّ، وتجاوز كرهه إلى الفلاح الكردي البسيط الذي يلقى الاضطهاد نفسه، ولربما أقلّ منه قليلاً لأسباب دينية، وإذا ما أضيف إليه تحريض دعاة السوء الذين لا يتحملون الأخوة الكردية- الأرمنية، فإنّ المسألة ازدادت سوءاً، ولذلك يجب ملاحظة ما ذكر أعلاه حول عوامل التقارب والابتعاد بين الكرد والأرمن لدى مناقشة دور الكرد في مذابح الأرمن، وقد تم إدانة الكرد في هذه المسألة أكثر مما يستحقّه الواقع وأكثر من اشتراكه في المذابح، ولكون الكرد مثل الترك أتباع الدين الإسلامي فقد زادوا من اتهامهم بهذه الجريمة، متناسين أنّ بعض الكرد المتنفّذين والمنتفعين كانوا أداة لدى الدولة.

كانت السياسة التركية تجاه المكونات الإثنية والمذهبية العثمانية متأرجحة بين العنصرية والأصولية، لكنّها كانت تميل أكثر نحو العنصرية، لأنّ الهدف التركي كان بناء الجامعة التركية وإنشاء الإمبراطورية الطورانية الكبرى، وبالتالي يتوجب تتريك كلّ ما هو غير تركي، وقد كان الإسلام وسيلة لخدمة هدفهم تحقيقاً لشعار " تركيا للأتراك"، ومن أجل تحقيق هذا الهدف عمدوا منذ البداية إلى تفريغ تركيا من الطوائف المسيحية وإذلال الكهنة والأساقفة وتحويل الكنائس إلى مساجد بدعوى نصرة "الهلال"[9]، وذلك منذ أيام السلطان محمد الثاني الملقب بالفاتح الذي استولى على القسطنطينية سنة 1453 وهو الذي منح الأرمن الحماية مقابل الخضوع ودفع الضرائب وعاملهم كرعايا وليس كمواطنين، ثم اختفى ذكر الأرمن ضمن الدولة العثمانية لمدة ثلاثة قرون.

مع بدء التغلغل الأوربي في شؤون الدولة العثمانية، بدأ الاهتمام بالأقليات المسيحية ومن بينهم الأرمن عن طريق البعثات التجارية والإرساليات التبشيرية من قبل الفرنسيين والإنكليز والأمريكان، لكن الدور الروسي تجاه الأرمن كان متميِّزا كون مذهبهم مطابق لمذهب غالبية الأرمن وهي الأرثودوكسية[10]، لكن الحكم العثماني الطوراني المستند على الإسلام كان لهم بالمرصاد، لأنّ السلطات الدينية والزمنية جميعها كانت بيد السلطان الذي هو خليفة المسلمين، وتم استخدام الأرمن في الأعمال التجارية والحرفية والترجمة والأعمال الدبلوماسية.

بعد معاهدة "تركمان جاي" سنة 1828 التي وضعت حداً للحرب بين روسيا وإيران، ضمّت روسيا مقاطعتي إيريفان ونخجوان اللتين يعتبرهما الأرمن ضمن أراضيهم التاريخية، وكان الأرمن قد قدموا للروس كتائب من المتطوعين لمؤازرة الجيش الروسي في الحرب، حيث اعتبر الأرمن ضم المقاطعتين إلى روسيا خطوة متقدمة معتبرين أن روسيا أقرب إليهم وأكثر تحضراً من الدولة العثمانية، وغدت مدينة إيريفان مركزاً لاستقطاب الأرمن.

يكمن حقد العثمانيين على الأرمن بسبب ميلهم الشديد إلى روسيا، وسعي الأخيرة إلى استغلال هذا الميل لاحتلال الولايات القريبة من حدودها، خاصة بعد أن ورد في معاهدة سايكس- بيكو السرّية لعام 1916 منح الولايات الواقعة شمال بحيرة وان إلى روسيا، وبدل أن تبذل الدولة العثمانية مساعيها لكسب عطف الأرمن ووضع حدّ للتغلغل الروسي، صعّدت من حقدها وضغوطها على الأرمن، وحاولت كسب عطف الكرد إلى جانبها لاعتبارات دينية واستعمالهم في صراعها ضد الأرمن.

مع ميلاد حركة التحرّر الأرمنية وانتشار أفكارها بدعم روسي بعد النصف الأخير من القرن التاسع عشر، بدأت سلسلة من الانتفاضات الأرمنية المسلحة بالانتشار، وكانت انطلاقتها من منطقة "زيتون"

[9] الهلال شعار المسلمين المقدس.
[10] بتأثير الإرساليات التبشيرية انشقت عنها جماعة كاثوليكية سنة 1831 وأخرى بروتستانتية سنة 1847.

الواقعة شمال غرب مدينة "مراش" ولثلاث مرات، في سنوات 1862) – 1878 – (1884، ثم اشتعلت في "وان" سنة 1886، وقد قمعت الدولة العثمانية تلك الانتفاضات باستعمال القوة المفرطة، وبسبب فشل الانتفاضات جميعها انشقت حركة التحرر الأرمنية وتمخضت عنها عدة تنظيمات سياسية مثل: حزب "أرمنكان" سنة 1885، حزب "هنچاك" سنة 1887 وحزب "طاشناقسوتيون" سنة 1890، حيث بدأت الحركة تأخذ طابعاً دولياً، كما برزت مخاطر انفصال أرمينيا عن الدولة العثمانية.

المجازر الأرمنية قبل الحرب الكونية وأثناءَها:

كان ردّ فعل العثمانيين على الفعاليات والممارسات الأرمنية اتّباع سياسة أشد قسوة من ذي قبل، فقد قاموا بتنفيذ سلسلة من المذابح بحقّ الأرمن، حدثت المذبحة الأولى في شهر آب 1894 في منطقة ساسون (ولاية سيرت)، وقد هب البطل علي يونس كبير "آل شرف" وزعيم العشائر الكردية في ساسون لنجدة الأرمن، حيث كان الكرد والأرمن يعيشون معاً بوئام تام، وأسفرت هذه المذبحة عن مقتل عشرة آلاف شخص وتدمير أربعين قرية.

حدثت المذبحة الثانية في أيلول 1895 في إسطنبول حيث قتل فيها حوالي 5500 أرمني وزجَّ الكثيرين في السجون، كما قتل في شهر تشرين الثاني من السنة نفسها "في ديار بكر أكثر من ثلاثة آلاف شخص ودمرت مائة وعشرين قرية"[11] على أنغام "التصلية والتسليم"[12]، كما حدثت مجازر أخرى بالفظاعة نفسها وفي الشهر نفسه في مدينتي "مراش و سيواس" ففي سيواس وحدها قتل أكثر من ألف شخص، وحسب تقرير سري للقنصل الروسي في إسطنبول موجه إلى وزير خارجية بلاده بلغ "عدد الأطفال الذين تيتموا ما لا يقل عن خمسين ألف طفل"[13].

بعد تعرّض الأرمن لسلسلة من المجازر الوحشية أحرقت قلوبهم، ثاروا على السلطان عبد الحميد الذي أمر بتنفيذها، حيث ساندت المنظمات الأرمنية "حركة الاتحاد والترقي" التي نادت بالحرية والعدالة والمساواة بكل قوتها، وبعد انتصار الاتحاديين في انقلاب 1908 تفاءل الأرمن بالخير، لكنّهم كانوا أول ضحاياه عندما ظهر الوجه الخفي للانقلاب، فبعد مرور أقلّ من عام، نفّذ الاتحاديون مجزرة "أضنة" في نيسان 1909 التي تعتبر المذبحة الأرمنية الثالثة، وقد أودت بحياة ثلاثين ألف إنسان.

ومن الملفت أنّ الاتحاديين أعلنوا القيام بحملة اعتقالات لمعاقبة "المجرمين"، بغية خداع الرأي العام، فمن بين خمسة عشر شخصاً تمت محاكمتهم، طال حكم الإعدام شنقاً لستة منهم من الأرمن، وحكم على ثمانية آخرين بالسجن بين 10-5 سنوات من الأرمن أيضاً، والمسلم الوحيد بين المتهمين حكم عليه بالسجن لمدة ستة أشهر، كما "اعتقل 362 شخصاً آخر كان 312 منهم (فقط !) مسيحيين"[14]، حيث كانت النوايا الخبيثة المبيتة للنظام العثماني (السلطان والاتحاديين) إزاء الشعوب العثمانية واحدة، إلاّ أنها كانت بالنسبة للأرمن أقسى وأشد هولاً.

---

[11] للاستزادة راجع مظهر كمال أحمد ص 250.

[12] كما يحدث في أيامنا هذه عمليات الذبح والقتل والحرق على أيدي التنظيمات الإسلامية المتشددة من "داعش" وأخواتها في روژآ□ا وسوريا على أنغام "التكبير"- المؤلف.

[13] ورد التقرير ضمن مجموعة وثائق ومواد جمعها البروفيسور نيرسيسيان باسم (the Genocide of the Armenians...)، مرجع سابق 251.

[14] مرجع سابق ص 253.

نُشير من جهة أخرى أنّ الأرمن إلى جانب عدائهم للدولة العثمانية، كانت الطبقات المتنفّذة والنخب الثقافية والعلمية منهم تتعاون مع الدولة في توافق مطلق أكثر من الشعوب العثمانية الأخرى كافة، وحصلوا على مكانة رفيعة منذ القرن السادس عشر في وظائف الدولة، فقد عيِّنَ عدد لا يحصى من الدبلوماسيين والمترجمين والوزراء ونواب الوزراء وأمناء خزينة السلطان وأطباء البلاط والفنانين وأساتذة المدارس التركية، وكانوا يدلون بتصاريح في المناسبات المختلفة يعبرون فيها عن ولائهم وخضوعهم للسلطان بعيداً عن جلجلة إخوتهم[15]، مستفيدين من النظام السياسي الذي يمنحهم امتيازات اقتصادية وثقافية.

مع اندلاع الحرب الكونية الأولى وبدء هجمات الجيش الروسي، حاول الأرمن اغتنام الفرصة الذهبية مثلها كمثل بقية شعوب الامبراطورية العثمانية، بغية الوصول إلى الحرية والتخلص من صور الماضي البائسة وبناء الدولة المستقلة، حيث كان حزب الطاشناق قد أثار روح الحقد والكراهية في نفوس الأرمن تجاه الترك والكرد معاً، ودفعهم إلى انتفاضة لم يحن أوانها، وحمل شبابهم المتحمّس السلاح والتحقوا بميادين القتال إلى جانب الجيوش الروسية، وحاربوا الجيش العثماني في مختلف الجبهات، وأسفرت عن اندحار القوات العثمانية في جبهات عدة، وكُسرت شوكة أنور باشا وزير الحربية والقائد العام للجيش العثماني، وقد ألقى الأخير ورفيقه طلعت باشا وزير الداخلية مسؤولية الهزيمة على الأرمن.

ما أثار "أنور" أكثر وجعله يخرج عن طوره هو سقوط مدينة "وان" بيد الأرمن الطاشناقيين الذي كان جودت بك واليها، حيث كتب الصحفي الشهير مولان زادة رفعت بك الذي كان عضواً في الاتحاد والترقي، ولا يفوته أية معلومة عن الاتحاد أو عن قصر السلطان: "وما أن سقطت وان في أيدي الأرمن وأرغم واليها جودت بك صهر أنور باشا على الفرار، وريثما تصل القوات الروسية تشكلت حكومة أرمنية مؤقتة، حتى هاجت رجال جمعية الاتحاد والترقي ...، وتزايد غيظ أنور، فدعا إلى عقد جلسة سرية لأركان الجمعية"[16]، وقد أسفرت الجلسة الطارئة عن: "اتفاق الآراء على محو الأرمن وإفنائهم عن بكرة أبيهم وألاّ يبقى فرد على قيد الحياة"[17].

أعلن الاتحاديون الانتقام من الأرمن عبر قرار سري بتنظيم سلسلة من المذابح لإبادة الأرمن، التي تعتبر المذبحة الرابعة والأكثر فظاعة في التاريخ التركي، حيث كشفوا "عن وجههم الإجرامي الوحشي، وسياستهم العنصرية المعادية للجنس البشري بشكل عام"[18]، كما عملوا قبلها بشعوب البونتوس والبلغار وغيرهم.

بدأت سلسلة المجازر الأرمنية اعتباراً من 24نيسان 1915، باعتقال أكثر من مائتي شخص من النخب الفكرية والسياسية وتصفيتهم، وانتهت في السنة التالية، وقد ورد في عدد كبير من المصادر إحصائيات عن عدد الضحايا والمهجرين والذين اعتنقوا الإسلام عنوةً أو خوفاً من الموت، وكانت الأرقام متباينة وذلك بحسب ارتباط كاتبه، وحيث أن كافة الأرقام الإحصائية تقريبية نذكر منها مصدرين فقط للدلالة على حجم الكارثة.

---

[15] كارزو جان ماري مرجع سابق ص 58.
[16] مولان زادة رفعت بك الوجه الخفي للانقلاب التركي، مطبعة الوقت حلب 1929 ص 91.
[17] المرجع نفسه ص 103.
[18] صالح جهاد "الطورانية التركية بين الأصولية والفاشية، ص 123.

المصدر الأول كتبه البروفيسور الأرمني نيرسيسيان باسم إبادة الأرمن، استناداً إلى دراسة مجموعة كبيرة من الوثائق والمواد وذكر الأرقام التالية[19]:

قتلى مذابح السلطان عبد الحميد	300 000 شخص
= = الاتحاديين	1 500 000 =
المهاجرون إلى القوقاز والبلاد العربية	800 000 =

أما المصدر الثاني فقد دوّنه الأكاديمي □.تارلييه في كتابه "أوربا في عصر الامبريالية" فقد سجل الأرقام التالية كحد أدنى عن خسائر الأرمن، بعد أن أجرى دراسات ومقارنات دقيقة وتوصل إلى النتائج التالية[20]:

الهاربون إلى القوقاز	182 000 شخص
اللاجئون إلى مصر	4 200 =
الذين اعتنقوا الإسلام	250 000 =
أعداد القتلى	1 000 000 =

وللأمانة التاريخية فأنّ بعضاً من الكرد ساهموا في مذابح الأرمن قليلاً أو كثيراً، بتحريض من الآخرين أو بدافع ديني، وهذه المساهمة مدعاة للأسف وعملٌ يدينه الشعب الكردي برمته، والإنسانية جمعاء، وإنّ الغالبية العظمى من المثقفين أدانوا واستنكروا تلك الجرائم، بغض النظر عن الأسباب التي دفعتهم إلى الاشتراك مع الدولة العثمانية في تنفيذ المجازر، ومع ذلك سنحاول البحث عن الأسباب ليس لتبرير الاشتراك، حيث معرفة الأسباب تجنّب تكرار حدوثها للشعوب والأجيال القادمة وتجنّبهم من الأهوال والكوارث، وسنعرض نماذج مقتضبة من المشاركات لنتمكن من تقييم الموضوع ضمن إطاره التاريخي.

1- "قوات الجندرمة يسلّمون قوافل الأرمن لآغوات كرد لسلب الأموال التي بحوزتهم، شريطة القيام بقتلهم" (تحريض من قبل الدولة قام بها متنفّذون كرد من أجل المال والتقرّب من سلطات الدولة).

[19] مظهر كمال أحمد مرجع سابق ص 257.
[20] مرجع سابق ص 256.

2- مساهمة "الفرسان الحميدية"[21] في المذبحة الأولى (نهاية القرن التاسع عشر)، وهي تشكيلة عسكرية حكومية شبه نظامية هدفها الحفاظ على سطوة السلطان وضرب الحركات القومية للشعوب غير التركية بما فيها الحركة القومية الكردية.

3- "قيام سمكو خان شكاكي بنصب كمين للأرمن على طريق بلدة قوتور وقتلهم جميعاً" (إجراء احتياطي من المخاوف المتوقعة من الأرمن مستقبلاً، بسبب تعاونهم مع الروس).

4- "قيام الملا سعيد أحد مشايخ الطرق الصوفية بإحضار أرمني بريء وذبحه على مرأى الجمهور، بحجة عدم خضوعه لسلطان الخليفة"[22] (تعصّب ديني أعمى بتحريض من الخليفة).

كما كان مفتي بلدة پالو يدفع الناس لقتل الأرمن بتوجيه من السلطة العليا، ومن شعارات الملالي: "الموت للمسيحيين والحياة للمسلمين"، وقتل الأرمن "مهمة على عاتق أمة محمد"، و "إنّ السعي لقتل الكفار يحلّ بركة الرب عليه"[23] وغيرها.

وعليه يمكن القول استناداً إلى أقوال الشهود وتصريحات المسؤولين الأتراك، أنّ تشكيلات الفرسان الحميدية ساهمت في مذابح الأرمن الأولى كما ساهمت في مذابح أرزروم وربما في أماكن أخرى، إلا أنّ اشتراكهم في المجازر لا يجوز تفسيره بأنّه اشتراك للكرد، باعتبار أفراد التشكيلات عناصر من أصول كردية، حيث ينبغي النظر كتشكيلة حكومية عثمانية وليست كردية، ولم يكن للكرد مؤسسة عليا (دولة أو حزب...) ترعى شؤونهم وتتخذ قرارات باسمهم.

وننوه في سياق الحديث عن جرائم "الفرق الحميدية" المنحدرين من أصول كردية، أن بعضاً من قادة تلك الفرق رفضوا الانصياع لأوامر السلطان ولم يشاركوا في المجازر، ومنهم "راغب باشا" زعيم قبيلة "رشوان" من قضاء بيسني (ولاية مراش) حسب ما كتبه مصطفاييف "الذي وضع جميع الأرمن القاطنين

---

[21] الفرسان الحميدية: منظمة عسكرية شبه نظامية تيمناً باسم السلطان عبد الحميد، تم التمهيد لها بنشر نداء خاص باسم السلطان موجه إلى "الكرد المسلمين - حماة الإسلام"، ودعوة رؤساء العشائر الكردية إلى الحضرة السلطانية في استانبول، والذين لبوا الدعوة جرى الاحتفاء بهم بمراسيم مهيبة وكان على رأس المستقبلين السلطان نفسه وبقوا في ضيافته لأربعة أسابيع، كما استقبلهم السلطان مرة ثانية في قصره الخاص ومنحهم أوسمة وألقاباً رفيعة كالباشا الذي يعادل رتبة الجنرال كما وزع عليهم هدايا ومخصصات نقدية، وقد تشكلت في نهاية القرن التاسع عشر وقوامها كانت من العشائر الكردية، قام بتشكيلها زكي باشا ووضع لها نظام داخلي خاص وقائمة من التعليمات، فكان على العشيرة التي تنضم إلى التشكيلات تقديم فارس واحد يبلغ من العمر 17 عاماً عن كل عائلة ويبقى في الخدمة مدة 23 عاماً ويخضع للتدريب مدة ثلاث سنوات ثم يؤدي الخدمة مدة 12 سنة ومن ثم يبقون مدة ثماني سنوات في الخدمة الاحتياطية في بيوتهم يتم استدعاؤهم حين الحاجة، وكان على الفارس حين انضمامه أن يحضر معه حصانه وتقوم الدولة بالصرف عليه أثناء الخدمة الفعلية وفي فترة التدريب، وكانت التشكيلات الحميدية موزعة على آليات (أفواج) حسب حجم العشيرة وكل آلاي (فوج) حميدي عادة يتكون من 3 إلى 6 كتائب والكتيبة الواحدة من 3 إلى 4 سرايا "طقم" وكل سرية من 20 إلى 30 فارساً وعلى رأس كل آلاي ضابط خيال نظامي وكانت العشيرة التي توافق على الانضمام تعفى من أداء الضرائب والرسوم عدا ضريبتي العشر والأغنام، كما تقرر منح كل عشيرة حميدية أراض أميرية خالية على أن تسترجع الأراضي عند انسحاب العشيرة من التشكيلات الحميدية، وكان للفرسان الحميدية محاكم خاصة بمعنًى السماح للفرسان إطلاق يديهم ضد كل معارض للعرش السلطاني، وكان الهدف منها إعدادها للحروب مع روسيا وضرب الحركات القومية للشعوب غير التركية بما فيها الكردية في الامبراطورية العثمانية، وبعد جهود مضنية فشلت تلك التشكيلات في تحقيق المهمات المرجوة منها سوى ما يتعلق باشتراكها في بعض المذابح الأرمنية، وقد رفضت معظم العشائر الكردية السنية الانضمام إلى تلك التشكيلات في حين رفضت العشائر الكردية العلوية كلياً، كما رفضها الزعماء الوطنيون كالبدرخانيين والشمزينيين وغيرهم، وانتقدتها بشدة جريدة "كردستان" ففي العدد الصادر بتاريخ 15 أيلول 1901 اعتبرتها "مؤسسة فاسدة" حيث أراد مؤسسها "تحويلها إلى أداة ضد الحركة القومية الأرمنية وللحيلولة دون التقاء الشعبين الأرمني والكردي" ومع مرور الأيام فقدت احترامها بين الناس كما فقدت السلطة نفسها سيطرتها عليها، ورفضت العشائر المنخرطة فيها الاشتراك في الحروب العثمانية، حيث رفض إبراهيم باشا الملي أن يزج رجالها في الحرب ضد اليونان وثوار اليمن. (المعلومات مأخوذة بتصرف من المصدر السابق للدكتور كمال مظهر ص 93-84 الذي نقله بدوره عن كتاب أ□بريانو□ پ. ي، الكرد في حروب روسيا مع إيران وتركيا خلال القرن التاسع عشر).

[22] حدث ذلك في كانون الأول سنة 1895 في مدينة أورفا، وورد في رسالة من القنصل البرتغالي في حلب إلى السفير الإيطالي في استانبول. (للاستزادة مظهر كمال أحمد مرجع سابق ص 257)

[23] مرجع سابق ص 261 نقلا عن (إبادة الأرمن، للبروفيسور نيرسيسيان).

في: ملاطيا، بيسني وآديمان (سمسور) تحت حمايته، واتخذ الإجراءات اللازمة لتأمين سلامتهم، وحتى أنه قتل ستة عشر شخصاً من قبيلة ديرجون بسببهم"[24]، وهذا يتناقض مع الزعم القائل "إن تدهور العلاقات بين الأرمن والكرد سببه الفرق الحميدية"، وأن إبراهيم باشا الملي المقرب من السلطان عبد الحميد والذي اشترك في التشكيلات الحميدية "تمكن من إنقاذ حوالي عشرة آلاف أرمني"[25].

نُشير بالمقابل إلى دور عظيم للكرد في إنقاذ الشعب الأرمني من المذابح، فقد أبدى السكان الكرد في جميع المناطق عن أسفهم واستيائهم لما جرى بحق الأرمن، ومدّوا يد المساعدة لهم في إنقاذ وإيواء الألوف منهم، فقد كتب "گردليسكي" بهذا الصدد: "كان للأرمن في كلّ مكان أصدقاء بين الكرد ينقذونهم عند الملمّات من بين أيدي الترك"[26]، فقد كتب عبد العزيز يامولكي "إنّ الأرمن الذين نجوا من سيوف الترك فإن ثلاثة أرباعهم دون مبالغة كان بمساعدة الكرد"، وحسب مصدر روسي باسم "المساعدات الأخوية لأرامنة تركيا" فإنّ محمود زادة بك أحد الأغوات الكرد "أنقذ جميع الأرمن في منطقته مكس من الموت" حيث واجه بشجاعة نادرة الفرسان الحميدية، وتبرّع بثلاثمائة ليرة للأرمن، لكنّ دور الكرد الديرسميين في الدفاع عن الأرمن كان مميزاً بشكل خاص، لدرجة أنّ ضابطاً كردياً باسم "مصطفى وفا" انشقّ عن الجيش التركي مع قواته وانضم إلى الجيش الروسي للقتال ضدّ العثمانيين، وكذلك قيام الكرد الإيزيديين في سنجار بإيواء مئات اللاجئين من الأرمن القادمين عن طريق دير الزور، وتقديم المساعدات الممكنة لهم.

وإلى جانب بعض رجال الدين المتعصّبين الكرد ظهر آخرون بدور إنساني حسب ما يمليه وجدانه وفهمه للشريعة الإسلامية، فقد قام "بديع الزمان سعيد النورسي" العالم الكردي الشهير بجمع جميع النساء والأطفال الأرمن في المناطق التابعة له لكي ينقذهم من الانتقام، وكان يقول: "إنّ هذا مخالف للشريعة"، وسلمهم إلى القوات الأرمنية.

المجازر المرتكبة ضد الكرد:

بسبب عدم توفر الوثائق والمصادر وامتناع الدولة التركية عن فتح أرشيف الحرب أمام الباحثين تعذّر معرفة أعداد الكرد الذين فقدوا حياتهم في مرحلة الحرب الكونية الأولى بالتزامن مع المجازر الأرمنية، حيث طبّقت المجازر بحقّ الكرد دون الإعلان عنها منهم من قتلوا في جبهة "جناقلة" وحوالي مائة ألف ضمن عداد الجيش العثماني في ساري قاميش، وعدد كبير من المدنيين على يد الجيش الروسي أو مرتزقتهم من العصابات الأرمنية بعد سيطرة الروس على ولايات: قارص، آگري، أرزنجان، وان وبدليس، ومئات الآلاف من الكرد المهجرين قسراً إلى الولايات الغربية وتراقيا بحجة إخلاء مؤقت للمدن والقرى لتجنّب بطش الجيش الروسي، بسبب البرد والجوع في ساحات الحرب مع الجيش الروسي أو في طريق الهجرة، كما كانوا يقتلون من يرفض الهجرة، حيث تذكر بعض المصادر فقدان أكثر من سبعمائة ألف شخص وبعضهم ذكر "قرابة المليون وشمل هذا العدد كرد الدولة العثمانية والإيرانية"[27].

مجزرة جبل لبنان:

---

[24] مصطفاييف وكيل، كردستان القوقازية، ترجمه عن الروسية أحمد علي حيدر (نسخة الكترونية).
[25] مرجع سابق ص 296.
[26] مظهر كمال أحمد، كردستان في سنوات الحرب العالمية الأولى، ص 295.
[27] بالكردية : Bozarslan Zekî r 329

كما اقترفت الحكومة العثمانية جريمة مروعة بحق سكان جبل لبنان في سنوات الحرب الكونية الأولى 1914- 1918 من خلال تجويعهم أثناء الحرب، وعندما طالب اللبنانيون بوضع حد لمأساتهم رد عليهم المتصرف العثماني: "لا مجاعة في لبنان ما دام اللبنانيون لا يأكلون بعضهم بعضاً"[28]، وقضى في هذه المجزرة قرابة مائة وثمانين ألفاً نحبهم جوعا، وهذه من أفظع أنواع المجازر.

التناقضات الكردية – الأرمينية:

كانت كردستان منذ عهد السيطرة العربية مقسّمة إلى أقاليم من بينها "الجزيرة وأرمينيا" اللتين أصبحتا تحت حكم السلطنة العثمانية، أما اقليم "الجبال" (گوهستان) فكان تحت حكم السلطة الإيرانية، ولا يحمل أي من الأقاليم الثلاثة اسم "كردستان" وكان الأرمن يعتبرون أن إقليم أرمينيا أراضٍ أرمينية صرفة، إضافة إلى أنهم كانوا يعتبرون القسم الأكبر من إقليم الجزيرة أيضاً أرمينية مثل: آمد (ديار بكر)، هكاري، شرنخ، سيرت، ماردين، رها وحتى ديلوك (عينتاب) بحيث يصل حدودهم الجنوبية إلى بلاد العرب، وهذا ما يرد في معظم كتبهم، فقد كان ادعاؤهم بعيداً عن الحقيقة وخارج المنطق ويثير حفيظة الكرد، لأنّ الكرد تاريخياً متواجدون على أرضهم وإنّ نسبتهم أكبر بكثير حتى في الولايات التي يكثر فيها عدد الأرمن، وإذا كانت نظرتهم بهذا الشكل على إقليم الجزيرة فكيف سيكون الأمر بالنسبة إلى إقليم أرمينيا الذي يحمل اسمهم؟، فالإخوة الأرمن لم يتركوا للكرد شبراً واحداً من الأرض ولم يتم ذكر اسمهم في مدوناتهم، باستثناء ما يرد من قبيل "قطاع الطرق من الأكراد نهبوا قطعان الماشية... أو محتويات كنيسة ... أو خطف فتاة أرمنية..."، وتحاشوا ذكر أنّ الكرد "جيران ... أو إخوة لنا في الجغرافيا ... أو نعاني معاً من ظلم العثمانيين والأتراك ... أو لنتعاون في مواجهة العدو المشترك"، كونهم أكثر تمدناً وحضارة، وهذا ما لم يحصل!.

إنّ ادعاءات الأرمن الوحيدة بأنّ جغرافية كردستان برمتها أراضٍ أرمينية تاريخياً، تستند إلى خضوعها للملك الأرمني ديكران الذي كان قد احتلها بمساعدة أجنبية بين أعوام (55-95) ق.م أي مدة أربعين عاماً، ولكن متى كان أربعون عاماً من الاحتلال يعطي الحق للمحتل بالاستملاك الشرعي والدائم؟، وإذا كان هذه شرعيتهم فماذا نقول للآشوريين والفرس والپارث والساسانيين والرومان والبيزنطيين والعرب المسلمين والمغول والتتار والعثمانيين والأتراك وأخيراً الفرنسيين والانكليز؟ حيث سيطر كلّ واحد منهم كردستان مئات السنين، هل يجب التنازل عن الأرض وتقديم الاعتذار؟!

لقد نسي الأرمن أنّ جنوب القوقاز الذي يعتبرونه أراضٍ أرمينية صرفة دون منازع، قد شهدت قيام الحكومة الروادية[29] الكردية التي عمرت أكثر من ثلاثة قرون (912-1226) وكان مؤسسها محمد الروادي ينتمي إلى عشيرة الروادية الكردية التي ينتسب إليها صلاح الدين، ومن الإقليم نفسه الذي يُدعى "أرمينيا" واتّخذت مدينة "تبريز" عاصمة لها، كما شهدت قيام الحكومة الشدادية الكردية في "أرّان" بالقوقاز وكانت عاصمتها مدينة د□ين (دبيل بالعربية) القريبة من يري□ان العاصمة الحالية لأرمينيا، ثم اتخذت مدينتي "گنجه" و "آني" عاصمتين بالتناوب، وضمت مدن: گنجه، آني، نخجوان، تفليس، قره باخ في الفترة (951-1101)، ويدّعي الأرمن أن تلك المدن ضمن ممتلكاتهم، إضافة إلى الدولة الدوستكية (المروانية) الكردية التي امتد حكمها على معظم ولايات الجزيرة وضمت مدن: فارقين، آمد، حسنكيف،

[28] برنس موسى، مجازر الأرمن، ترجمة د. آكوب أوقجيان، منشورات جمعية كيليكيا حلب 1996 ص 55.
[29] لمعرفة التفاصيل راجع كتابنا "وطن الشمس" ج 2 ص 57.

سيرت، بدليس، ماردين، رها، حران، نصيبين وحتى الموصل، والدولة الأيوبية في حسنكيف وفارقين، كما شهدت قيام أكثر من خمسة عشر إمارة مستقلّة امتدت حكم بعضها لأكثر من ستة قرون، وأنّ بدليس التي يعتبرها الأرمن أيضاً مدينة أرمنية صرفة شهدت قيام إمارة مستقلّة دامت لأكثر من أربعة قرون، وكان المؤرخ الشهير صاحب كتاب "شرفنامه" أميرها في نهاية القرن السادس عشر، وهذا ما يؤكده معظم المؤرخين العرب والأجانب أمثال ابن الأثير وابن شداد وستانلي لين بول وغيرهم كثيرون.

يدّعي الأرمن أيضاً في مدوّناتهم أنّ بعض الولايات (العثمانية) أرمنية صرفة يزيد نسبة السكان الأرمن فيها عن 88% من مجموع السكان، مثل: ديار بكر، وان، أرزروم، خاربوط، آگري وقارص، في حين يشير ما ورد في "الكتاب الأصفر"[30] الذي يتطرق إلى الشؤون الأرمنية بين أعوام 1897-1893 حول إحصاء السكان، والمذيل بحاشية دبلوماسية لوزارة الخارجية الفرنسية تؤكد: "أن الأرمن لا يشكلون الأغلبية في أية ولاية من الولايات الست" التي يدعي الأرمن أنها ضمن "أرمينيا التاريخية"، ويشير المصدر نفسه إلى "وجود 666.435 أرمني من مجموع السكان البالغ 3.607.618 أي أقل من 20% من مجموع السكان"[31] مع أنّ المصدر موالٍ للأرمن، بينما المؤكد أن الكرد يشكلون الأغلبية ولكن دون وجود وثائق إحصائية رسمية، لأنّ الكرد كانوا مجردين من المؤسسات العلمية والتعليمية المهتمة بالشأن الكردي، كما أنّ الكرد كثيراً ما كانوا يلجؤون إلى التكتم عن ولاداتهم ويتركونهم مكتومين، تهرّبا من الخدمة العسكرية أو كانوا يتركون أراضيهم الزراعية ويمتهنون الرعي هرباً من الضرائب الباهظة، في حين كان الأرمن يملكون مؤسسات اجتماعية وثقافية ودينية بتأثير ضغوطات الدول الأوربية، وكانت الكنيسة تتولى إدارة شؤون سجلات الأحوال الشخصية، ناهيك عن أنّ كافة المصادر التي أرّخت للقرون 20-19-18 على يد مؤرخين وباحثين روس وإنكليز وفرنسيين، وجميعهم كانوا موظفين عسكريين أو سياسيين وموالين لسياسة بلادهم المتعاطفة مع الأرمن.

من المعلوم أيضاً أنّ الكرد يجهلون اللغة الأرمنية وهذا معروف لدى الأرمن، في حين أنّ الغالبية العظمى من الأرمن يتكلمون بالكردية وكثيرون منهم لا يعرفون سوى الكردية، حيث كانت الأرمنية لغة الأكليروس (الرهبان والشعائر الدينية) وبعض المثقفين من أرمن كيليكيا وأسطنبول، ففي مقابلة تلفزيونية أجرتها القناة الكردية MED tv مع المغني الأرمني الشهير كره بيت خاجو في بداية سنة 2000، والذي كان يغني بالكردية حتى وفاته في 2003، بعد أن عَمَّر أكثر من مائة سنة حيث قال: "نجوت من المذبحة أنا وأختي بمساعدة أسرة كردية، وبعد أن هدأت المجزرة التجأنا إلى مدينة قامشلو، وفيها بدأ القساوسة (رجال الدين) يجمعوننا في المخيمات ليعلموننا اللغة الأرمنية، حيث كنا لا نعرف سوى اللغة الكردية"، وإذا كان الأرمن أكثر عدداً فلماذا كانت اللغة الكردية لغة التخاطب واللغة الدارجة بينهم؟

مسؤولية المجازر الأرمنية:

يرد في المدونات الأرمنية التي كتبت من قبلهم أو من قبل مناصريهم، اتهام الكرد جنباً إلى جنب مع الدولة التركية في مسؤولية ارتكاب المجازر، ويعتبر هذا الاتهام مجحفاً بحقّ الكرد وبعيد عن العلم والمنطق والحقيقة، لأنّ الكرد في زمن المجازر وقبلها لم تكن لهم دولة أو أي وضع سياسي يقودهم إلى اتخاذ هكذا

[30] الكتاب الأصفر يحتوي على وثائق دبلوماسية لوزارة الخارجية الفرنسية حول: "قضايا الشرق، قضايا أرمينيا، مؤتمر برلين .." في القرن التاسع عشر.
[31] كارزو جان ماري مرجع سابق ص 41.

قرار سياسي، حتى أنّه لم يكن في وسعهم إنشاء تنظيم سياسي يعمل على توجيه تنظيم فعاليات سياسية أو عسكرية، وهذه مسألة تاريخية معروفة من قبل شعوب المنطقة وعلى رأسهم الأرمن، ففي حين يفتخر الأرمن باستمرار بأنّ صحافتهم كانت في المرتبة العاشرة بين دول العالم من حيث القدم لأنّ تاريخ تأسيسها يعود إلى القرن السابع عشر، بينما الصحافة الكردية بدأت من القاهرة في نهاية القرن التاسع عشر (1898).

أما على مستوى التنظيمات السياسية فإنّ الأرمن يفتخرون أيضاً بأنّ تاريخ تأسيس أحزابهم[32] أقدم من أحزاب شعوب الشرق الأوسط كافة، في حين كانت أول جمعية سياسية فعلية تخصّ الكرد تعود إلى سنة 1927 عندما تأسست جمعية "خويبون"، وكانت تركيا قد أنهت وقتها مسألة المجازر.

فكيف يمكن اتهام الكرد بتنفيذ المجازر دون وجود مؤسّسة سياسية- قومية؟ فهذه مغالطة تاريخية وعلمية وأدبية واتهام باطل، حتى لو اشترك عدد كبير من الأفراد المنتمين إلى القومية الكردية في تنفيذ جريمة الإبادة الجماعية، ولذلك يجب البحث بعمق وأسلوب علمي عن أسباب المجزرة والدوافع والنتائج حتى نتمكن من توجيه الاتهام، ومن أجلها لابد من القيام بدراسة جغرافية وتاريخية وسياسية واقتصادية حتى نصل إلى الأسباب والدوافع التي أدت إلى المجزرة، ونُشير إلى حقيقة تاريخية أنّ الاختلاف في طبائع الشعوب قد يؤدي إلى عواقب أليمة، ويلاحظ أنّ تلك الطبائع متوفرة لدى الأتراك بشكل جليّ، كونهم امتهنوا الغزو والسطوة العسكرية منذ أن غادروا بلادهم في تركستان إلى أن وصلوا إلى المنطقة، لذا فإنّ الدولة التركية هي التي قرّرت مسبقاً وأمرت بتنفيذ المجزرة، والمؤسّسات التابعة لها هي التي نفذت الأوامر مع بعض الكرد الذين كانوا موظفين في تلك المؤسسات، وربما أجبروا على التنفيذ حيث "الأداة لا تحاسب"[33]، ومن الانصاف معرفة المنظمات الأرمنية المسؤولة عن اقتراف جرائم قتل بحق الكرد في مناطق مختلفة، لأنّ الأرمن كانوا أصحاب القرار, وكان لديهم منظمات سياسية (الطاشناق مثلاً)، وكان بالتعاون مع جيش أجنبي (الجيش الروسي).

عاش الكرد والأرمن كشعبين شقيقين متجاورين على جغرافية واحدة منذ القرن السادس قبل الميلاد وهي مرحلة ظهور الأرمن في التاريخ، وتوطدت الصلات الاجتماعية والاقتصادية بينهما وعاشا شبه مستقلين وأحياناً كان يحكم أحدهما الآخر حسب التطورات السياسية، لكن العلاقات الأخوية وحسن الجوار تبدلت في بداية القرن الرابع الميلادي عندما ترك الأرمن المنظومة الدينية السائدة في المنطقة ودخلوا في الدين المسيحي، ومنذ ذلك العصر أخذ الأرمن يربطون مصيرهم مع أوربا المسيحية، وحتى قبل دخولهم المسيحية كانوا يحبذون التعامل مع شعوب غرب الأناضول كاليونان والبونتوس وغيرهم، كما تعاونوا مع الغزاة الأوربيين كافة الذين وفدوا إلى آسيا الصغرى وكردستان وميزوبوتاميا بقصد الاحتلال كالرومان والبيزنطيين والصليبيين، وفي الحرب الكونية الأولى تعاونوا مع الحلفاء (الإنكليز والفرنسيين والروس والأمريكان) وتحت إمرتهم، وقدّموا لهم كافة الخدمات الممكنة، بدءاً من المؤن والذخائر والمحاربين بناء

---

[32] تأسس حزب أرمناكان في وان 1885، وحزب الهنچاق في جنيف 1887، وحزب الطاشناق سنة 1890، للاستزادة (د. حنا سعيد الحاج، العلاقات الإسلامية الأرمنية ص 342).

[33] قالها المرحوم الاستاذ محمد قجة رئيس جمعية العاديات بحلب الذي كان يدير ندوة مشتركة نظمها عدد من المثقفين الكرد وكنت واحداً منهم مع نادي الشبيبة الأرمنية بحلب تحت عنوان "الأدب والجرائم ضد الإنسانية" حضرها حشد كبير من الكرد والأرمن في صالة كنيسة الأربعين شهيد في شباط 1998 وكان من جملة المدعويين "سورين قاتارويان" مطران الأرمن ونقيب الصحفيين الفلسطينيين الشاعر خالد خالد والباحثة أمامة الأحمد وعلي عقلة عرسان رئيس اتحاد الكتاب العرب، وكان هدف الندوة التقريب بين المثقفين الكرد والأرمن، وبسبب احتدام النقاش من قبل الشباب الأرمن في نهاية الندوة حول مسألة المجازر بإلقاء المسؤولية على عاتق الكرد، ولوضع حد للنقاش قال الأستاذ "قجة" في مداخلة جريئة وختمها بقوله: "ولذلك فإن المحاسبة تقع على عاتق صاحب القرار السياسي- الدولة العثمانية- وليس أداة التنفيذ" (المؤلف).

على وعد بإقامة دولة أرمنية، حيث كان الأرمن يشعرون بالتفوق العرقي ويفتخرون بالانتماء الهندو-جرماني مع أنّ الكرد والفرس من العرق نفسه، ويشعر الأرمن في قرارة أنفسهم أنهم أوربيون، يؤكد ذلك ما كتبه السفير الأمريكي في أسطنبول هنري مورگنتاو بين سنوات (1913-1916): "لم يعتبر الأرمن أنفسهم آسيويين بل أوربيين، إنهم يتكلمون لغة هندو- أوربية وأصلهم العرقي هو آري حسب رأي العلماء، وكون دينهم هو دين أوربا مما جعلهم يلتفتون بعيونهم نحو الغرب، كانوا يأملون دائماً أنه سيأتي اليوم الذي ستحررهم تلك الدول الغربية من أسيادهم المجرمين"[34].

من حقّ الشعب الأرمني أن يطالب بمحاكمة عادلة لمرتكبي جريمة الإبادة بحقّ شعبهم، بدءاً من المسؤولين عن القرارات المتخذة بهذا الخصوص وحتى المنفّذين، وإنزال العقوبة اللازمة بحقّهم وطلب التعويضات المستحقة للضحايا، وكلّ الشعوب والبشرية جمعاء تؤيدهم في ذلك والكرد في مقدمتهم، ولكن ليس من حق السياسيين الأرمن أن يتهموا الكرد كشعب بارتكاب المجازر الجماعية ضدهم، لأنّ الشعوب كافة لا ترتكب جرائم بحقّ البشر، حيث بطبيعتها محبّة للسلام، ولأنّ الكرد خاصة لا يمكنهم ارتكاب هكذا خطيئة، إنّهم الأمة الوحيدة في العالم التي يبلغ عدد سكانها أكثر من أربعين مليون إنسان وليس لها كيان سياسي يجمعها ويدافع عن حقوقها أسوة ببقية شعوب العالم، ولا زال الشعب الكردي يناضل على أرضه منذ مئات السنين ويدافع عن نفسه ضدّ المحتلين والمستغلين ويقدمون الضحايا بعشرات الآلاف بغية الوصول إلى الحرية المنشودة، ومن أجلها يبحث الكرد عن صداقات جيدة ودائمة مع جيرانهم أولاً ومع الأمم الأخرى ثانياً، ولا مصلحة لهم في معاداة أحد سوى من يحاربهم في حقّهم بشكل مباشر.

ومن المعلوم أنّ السياسيين (الرؤساء والملوك..) هم الذين يقومون بالحروب بضغط من رؤوس الأموال، حيث "رأس المال هو عصب الحرب وأنّ الإعلام هو روحها"، وأنّ الكرد المساكين لم يكن لديهم إبان الحرب الكونية الأولى لا سياسيين ولا رأس المال ولا مؤسسات إعلامية.

صدرت العديد من الكتب حول القضية الأرمنية عامة والمجازر خاصة، كتبها سياسيون أرمن أو كتّاب موالون لهم لحساب مراكز الدراسات الأرمنية بغية مصالح خاصة، أو بعض الدبلوماسيين الأجانب من الدول التي ورطت الأرمن في الحرب ضد الدولة العثمانية، ثم تركتهم يواجهون المأساة لوحدهم وهي تتضرج في بحر من الدماء وبين الفينة والأخرى، كانت توحي للأرمن بأنّهم ما زالوا إلى جانبهم، حيث يتكرّر في كتبهم جمعاء عشرات المرات اتهام الكرد بتنفيذ المجازر وبعبارات لا تليق بالدبلوماسيين أمثال الدبلوماسي الأمريكي هنري مورگنتاو في كتابه " قتل أمة"، من قبيل "الأكراد الحقيرون هم المسؤولون عن المجازر الأرمنية"، ربما لو صدر من مواطن أرمني عادي من الممكن تفهّمه، أما من دبلوماسي أمريكي أو كاتب مثل الدكتور "حنا سعيد الحاج" الذي أورد مئات الاتهامات على الكرد في كتابه "العلاقات الأرمنية الإسلامية" من أجل مصالح ذاتية، فهما أعلم من الأرمن أنفسهم كيف جرت المجزرة ومن كان وراءها ومن تخاذل عن القيام بمسؤوليته الإنسانية والتاريخية.

وحسب الأدلة المتوفرة فإنّ الدولة (العثمانية - التركية) هي المسؤولة الرئيسة عن المجازر، فهي التي خططت ودعت إليها عبر وسائلها المتعددة، وقامت بتنفيذها عبر مؤسساتها الأمنية والعسكرية وجيشها النظامي وشبه النظامي والعصابات المختلفة التابعة لها، حيث يتوفر الكثير من الأقوال والتصاريح والقرارات الصادرة عن الدولة العثمانية تثبت بالدليل القاطع المسؤولية الكاملة عن المجازر المرتكبة

[34] مورگنتاو هنري، قتل أمة، ترجمة د.الكسندر كشيشيان، دار أسامة 1990 ص 31.

بحق الأرمن، فقد كتب الدكتور توفيق برو مترجم كتاب "الوجه الخفيّ للانقلاب التركي" في مقدمته للكتاب المذكور: "كانت الخطة المدبرة مسبقاً لإبادة الشعب الأرمني قد مرت بمرحلتين:

1- اجتماع الاتحاد (الاتحاد والترقي- المؤلف) في سالونيك 1910 الذي تقرّر فيه ممارسة سياسية عنصرية، واتخذ القرار هنا بأن تُزال اللغات غير التركية وتتريك العناصر وإذا لم يتيسّر ذلك فالإبادة بقوة السلاح.

2- في الاجتماع "السري" الذي عقد في أسطنبول أوائل عام 1915 تم التحضير للأسلوب الذي يجب على الاتحاد أن ينتهجه لتطبيق وتنفيذ مفعول القرار المتخذ سابقاً".

فقد كانت الدولة العثمانية قد جندت عشرات الآلاف من الجنود بغية تنفيذ المذابح في مختلف الولايات، ففي ولاية أورفا وحدها كلفت ثلاثين ألف جندي ودركي لهذه الغاية، وفي بلدة عربكير كلفت ألف وستمائة جندي للقيام بعمليات إبادة الأرمن الموجودين فيها.

كما أنّ الأمر التالي يؤكد ما ورد أعلاه بشكل لا لبس فيه لتثبيت مسؤولية وقوع الجريمة على عاتق الدولة التركية:

برقية[35]

أمر من طلعت باشا إلى حكام حلب

أبلغكم بناء على توصيات الاجتماع العام (حزب الاتحاد والترقي- المؤلف)، بأن الحكومة قررت ما يلي:

"إبادة الأرمن إبادة كاملة ... يجب أن ينتهي وجودهم مهما كانت الوسائل إجرامية ..."

1915-9-16 **وزير الداخلية/طلعت باشا**

وقد سار على خطاه الامبراطور الألماني أدولف هتلر ونفذه على الشعب البولوني!

أمر هتلر

"أمرت وحدات الموت (S S) أن تبيد بدون شفقة ولا رحمة كل النساء والرجال والأطفال المنتمين للعرق البولوني واللغة البولونية، وبهذا الشكل نستطيع الاستيلاء على ما نحتاج من أراضٍ.

ختاماً، من منّا يذكر اليوم إبادة الأتراك للشعب الأرمني؟"

1939-8-22 أدولف هتلر

بعد الدولة العثمانية يأتي دور ألمانيا التي تتحمل جزءاً كبيراً من المسؤولية عن إبادة الأرمن والسريان والآشوريين والكرد، لأنّها هي التي حرّضت ولهثت من أجل جرِّ حليفتها تركيا إلى الحرب الكونية وارتكاب المجازر، وإلا كان بإمكانها منع المجازر أو إيقافها حال حدوثها، لكنّها أرادت ذلك، وكانت

[35] برنس موسى مرجع سابق ص 27.

تهدف قبل غيرها من أجل الاستحواذ على ممتلكات الامبراطورية العثمانية، ومن أجل بلوغ الهدف سخّرت كل ما تملكه من الأدوات السياسية والديبلوماسية والعسكرية والاقتصادية والنخب الثقافية.

ذكر الكاتب السياسي الألماني باول روروباخ P.Rohrbach في محاضرة لضباط الأركان أنّ "على بلاده أن تعمل من أجل تهجير الأرمن من مناطق سكناهم ...، للاستيلاء على امتداد خط سكة حديد برلين بغداد، ومن ثم نقل عشائر من التتار والأتراك إلى أرمينيا الغربية لإقامة حاجز فولاذي بوجه روسيا"، وفي محاضرة ثانية ذكر "أنّ أرمينيا تشكل بؤرة فوضى في تركيا، ويحتاج إخمادها إلى استخدام الكرد"[36]، وفي مذكرة للسفير الألماني إلى الصدر العظم سعيد حليم باشا في حزيران 1915 أعلن فيها تأييد بلاده الكامل بإبعاد الأرمن من شرق الأناضول، كما ذكر المؤرخ الأرمني آ□يتيان أنّ ألمانيا "اشتركت بشكل فعّال ومباشر في إبادة الأرمن"[37]، وهي التي أشاعت فكرة "استحالة عيش الأرمني مع التركي" ، وأيضاً هي التي "اقترحت ترحيل قسم من الأرمن إلى أمريكا وتبديل العدد الآخر منهم بيهود بولونيا "[38].

وفي حقيقة الأمر كانت ألمانيا ترى أنّ الأرمن حجر عثرة في طريق الدولة الألمانية الصاعدة نحو إقامة إمبراطورية كبرى تمتد نحو الشرق، وتضمّ جغرافية الأناضول برمتها، ومن أجلها صرفت مبالغ طائلة على شركة "BBB" لمدّ خط حديد "برلين – بغداد – بصرة" قبل اندلاع الحرب، وسعت من أجل "أَلْمَنة" [39] كامل الأناضول، حيث الجنود العثمانيون الذين ساهموا في المجازر كانوا يعلنون صراحة أنهم ينفذون أوامر السلطان وإمبراطور ألمانيا، كما أنّ حقد الألمان على الأرمن كان بسبب ميل الأخيرة إلى الثقافة الأمريكية والفرنسية، وعلاقاتهم التجارية معهما وضد المصالح التجارية الألمانية.

بعد ألمانيا يأتي دور دول الحلفاء وعلى رأسها: روسيا، بريطانيا، فرنسا في المسؤولية عن المجازر، حيث اعتبرت الأرمن حليفاً لها شفاهة، وأعطتها الكثير من الوعود المعسولة وعلى رأسها "إقامة دولة أرمنية مستقلة"، وكانت نظرتهم إلى المسألة الأرمنية من زاوية مصالحها الخاصة، فرادى ومجتمعين، يساندونها بالأقوال إذا كان ذلك في صالحهم، ويتغافلون عنهم إذا تعرضوا للشدائد والمحن عندما يتعارض مع مصالحهم، فقد كان الأوربيون يستغلون الأرمن الذين وقعوا تحت رحمتهم إلى أبعد الحدود، لأنّهم لم يكن لهم ملاذ غير الدول الأوربية.

كانت بريطانيا العظمى تتخوّف من حصول أرمينيا على وضع سياسي ولو بالحد الأدنى، لأنّه قد ينعكس على وضع مستعمراتها المنتشرة في أنحاء العالم، ومثلها فرنسا اللتان لم تحركا ساكناً، وصمتتا وهما تنظران إلى وحشية المجازر المرتكبة بحقّ الأرمن حليفتهما، أما روسيا الجارة لأرمينيا وتشتركان معاً في مذهب مسيحي واحد (الأرثودوكسية)، لم تحرك ساكناً بدورها واستمرت في استغلال الأرمن قبل المجازر وأثناءها، وحتى بعد قيام ثورة أكتوبر الاشتراكية، واكتفت الدول الأوربية المتحالفة بتوجيه اللوم لألمانيا في إطار دعائي، وهذه أيضاً كانت لمصلحة الحلفاء.

وباختصار يمكن القول: إنّ أوربا برمتها مسؤولة عن الجرائم التي ارتكبتها تركيا بحقّ الأقليات القومية لأنّها برّأتها لأجل مصالحها الاقتصادية.

---

[36] مظهر كمال مرجع سابق ص 285.
[37] مرجع سابق ص 286.
[38] الحاج د.حنا سعيد، مرجع سابق ص 193.
[39] جعل كل شيء ألمانياً على غرار تتريك- تعريب- تفريس.

ونُشير أخيراً حول مسؤولية المجازر أنّ الأرمن أيضاً يتحملون قدراً من مسؤولية تلك الجرائم، فقد كان حزب الطاشناق يُثير على الدوام روح الحقد والكراهية في نفوس الأرمن تجاه الكرد، ويدفع الأرمن إلى انتفاضة لم يحن أوانها، فقد كان عليه أن يعمد إلى إقامة صداقة وطيدة مع الكرد ويدعوهم إلى القيام بانتفاضة مشتركة، لأنّ الشعبين يعيشان حياة مشتركة ومتداخلة على جغرافية واحدة ويصعب إقامة الحواجز والحدود بينهما، فقد كتب الدكتور گ.م. أرتينيان بهذا الصدد: "بدلاً من جذب القوى الديمقراطية للشعب الكردي كحلفاء والقيام بنضال تحرّري مشترك ضدّ الإقطاعيين، حاولت الأحزاب الأرمنية بدعواتها إلى الكره العنصري والديني وإقامة جدار بين الشعبين الأرمني والكردي"[40]، كما أشارت صحيفة "كردستان" مراراً في أعدادها الصادرة بين عامي 1901 و 1902 إلى مخاطر "النوايا العدوانية لقلة من الأرمن" مقابل "النوايا العدوانية لقلة من الكرد"، حيث كان يُشاع في الأوساط العثمانية أنّ دولة أرمنية ستقام بمساعي روسيا وبريطانيا وفرنسا، وسيقع الكرد تحت سيطرة هذه الدولة المسيحية بمعنى تشويه سمعة الأرمن لدى الكرد وخلق العداوة بينهما.

بغضّ النظر عن عدد الضحايا حيث يختلف من مرجع لآخر، لكن المؤكد أنّ المجازر حصلت وسقط العديد من الضحايا الأبرياء قتلى في الحرب الكونية الأولى واستمرّت حتى عهد أتاتورك وإينونو، حيث يرد عدد الشهداء الأرمن في المصادر الأرمنية بأكثر من مليون ونصف المليون من الشهداء، ومن الآشوريين والسريان أكثر من مائتي ألف شهيد، وتذكر المصادر الكردية أنّ عدد الشهداء الكرد يتراوح بين سبعمائة ألف والمليون من الشهداء سقطوا قتلى أو فقدوا حياتهم بسبب البرد والجوع والأمراض السارية خاصة عند تعرضهم للتهجير القسري إلى غرب الأناضول.

ونُشير أيضاً أنّ المجازر المرتكبة بحقّ الأرمن لم تكن بهدف إبادة البشر فقط، فحتى الحجر لم يسلم من شرهم، فقد أزالت الدولة التركية الجديدة كل ما يمت القوميات المستهدفة بصلة عامة والأرمن خاصة من أوابد وعاديات والمباني والرموز وغيرها، وإنّ الصورة الحجرية للكنيسة التي نشرناها أدناه تنطق عن أبسط جرائم الدولة التركية بحق الأرمن.

باختصار شديد يمكن القول: إنّ المجازر الأرمنية كانت عملاً مدبَّرا، تم تنظيمها بدقة من قبل أطراف متعدّدة، واشتركت فيها أطراف مختلفة، ولكلّ طرف دوافعه ومصالحه الخاصة، وإنّ القول أنّ المجازر كانت حصيلة مشاعر عمياء من قبل الكرد، أو نتيجة لتخلفهم، هي تفسيرات عمياء وبعيدة عن الصحة ولا تخدم الحق والعدالة.

وفي ختام بحثنا عن المجازر الأرمنية نُشير إلى مقولة لعالِم ألماني كان يردّد كثيراً: "لكي نتقدّم علينا أن ننسى الماضي"، وهي مقولة فيها الكثير من الغبن والإجحاف، ولكن كيف ننسى الماضي؟ نعم، علينا أن ننسى الماضي من أجل التقدّم، ولكن بعد تفحّص الماضي والاستفادة من تجاربه، والحلّ الوحيد لمسائل الشعوب التي رزحت تحت الحكم العثماني هو البحث عن عهد جديد يعيش في ظله الجميع دون إعطاء أية أهمية لفكرة الحدود أو إنشاء دول قومية مستقلة، حيث يصعب رسم الحدود بين الشعوب خاصة في منطقة الشرق الأوسط التي يعيش فيها عشرات الأمم والشعوب المتداخلة جغرافياً بين بعضها، لأنّ هدف الاستحواذ على الدولة المستقلة كان وراء كوارث شعوب الشرق الأوسط، وعليه يجب البحث عن طراز جديد من العيش المشترك والنموذج الأفضل والمناسب وهو ما يُشير ويركّز عليه المفكّر عبد الله أوجلان،

[40] مظهر مرجع سابق ص 264.

وهو نموذج "الأمة الديمقراطية"، حيث يشهد على صحته العيش الأخوي المشترك بين شعوب شمال سوريا في وقتنا الحاضر.

قائمة المصادر والمراجع

1- برنس موسى، مجازر الأرمن، ترجمة د. آكوب أوقجيان، منشورات جمعية كيليكيا حلب 1996.
2- بريستاد إدوارد هايل، الخيانة الكبرى، ترجمة جورج آرويان، عبد المنعم- ناشرون 2003.
3- الحاج د. حنا سعيد، العلاقات الإسلامية الأرمنية، مركز الدراسات الأرمنية، بيروت 1996.
4- شكاكي عبد الله، وطن الشمس، ج2، دار شلير- قامشلو 2017
5- صالح جهاد، الطورانية التركية بين الأصولية والفاشية، بيروت 1987.
6- كارزو جان ماري، أرمينيا 1915 الجريمة النموذج لإبادة الجنس البشري، ترجمة جورج آرويان، مطبعة القمة، الحسكة- سوريا 2003.
7- مظهر د.كمال أحمد، كردستان في سنوات الحرب العالمية الأولى، ترجمة محمد ملا عبد الكريم .
8- مصطفاييف وكيل، كردستان القوقازية، ترجمة عن الروسية أحمد علي حيدر (كتاب الكتروني).
9- مورگنتاو هنري، قتل أمة، ترجمة د.الكسندر كشيشيان، دار أسامة 1990.
10- مولان زادة رفعت بك الوجه الخفي للانقلاب التركي ، مطبعة الوقت, حلب .

نموذج عن الإبادة الثقافية

كنيسة أرمنية في الحي الأرمني بمدينة ديلوك (عينتاب) حيث شوهد آثار نقش كتابي داخل المبنى إلى جانب الباب الرئيسي، تم إزالته وبقي منه التاريخ فقط الذي يشير إلى سنة 1894 كما أزيل كل أثر يُشير إلى المسيحية، تم استعمال المبنى كمستودع حتى سنة 1961 ثم أصبح مركزاً للشرطة وبعدها أصبح مكباً للنفايات، وفي عهد الرئيس التركي تورگوت أوزال في بداية التسعينيات تم تحويلها إلى جامع بعد إضافة وصلة على برج الناقوس ليتحول إلى مئذنة (انظر الصورة أعلاه حيث تظهر الوصلة بشكل جلي)، ودعي

"Kurtuluş Cami" ويعني جامع التحرير، ومع ذلك بقيت معالم الكنيسة ودلالاتها واضحة للعيان (أخذت الصورة في 2009- المؤلف).:

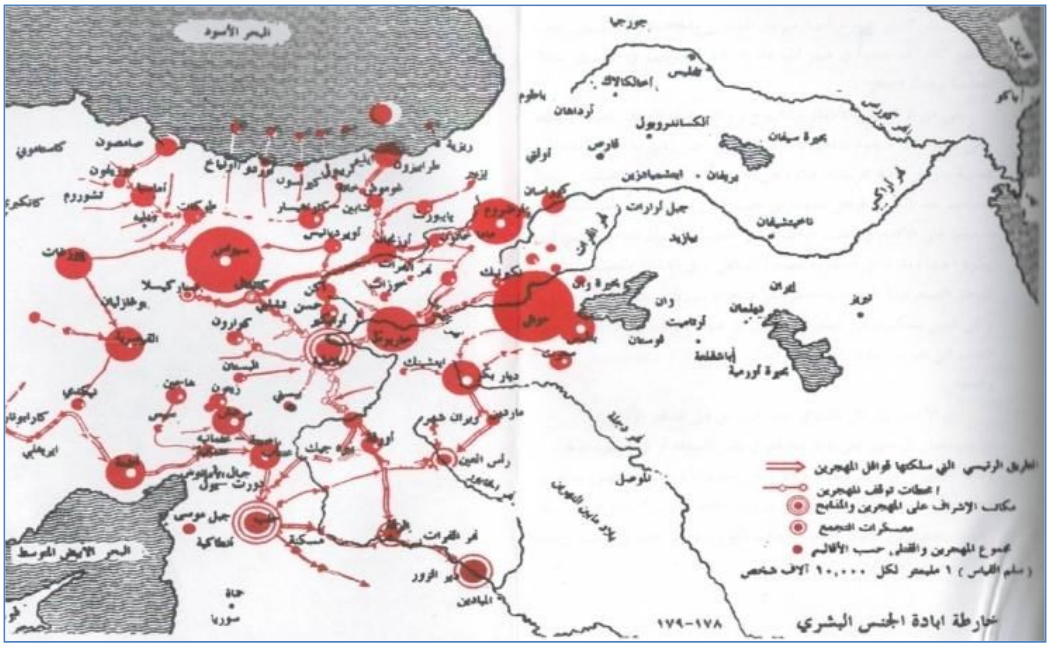

خريطة المجازر الأرمنية سنة 1915